

الحرب الروسية – الأوكرانية من المنظور الواقعي...أمننة الخوف

The Russo-Ukrainian War; The Securitization of Fear



محمد براء علي ديب Mhd Baraa Ali Dib

معهد الدوحة للدراسات العليا، قطر mal142@dohainstitute.edu.qa

تاريخ النشر: 2024/01/10

تاريخ القبول: 2024/01/02

تاريخ الإرسال: 2023/08/28

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى معالجة مُسببات الحرب الروسية- الأوكرانية من منظور واقعي يركز بشكل أساسي على دور المُعضلة الأمنية في تهيئة مناخ الحرب على فترة امتدت منذ انهيار الاتحاد السوفييتي وصولاً إلى بداية الغزو الروسي. تتناول الورقة دور الدولة الروسية كفاعل أولي في عملية صنع القرار، بما يُخالف الاتجاه الذي غلب فيما بعد، خصوصاً في وسائل الإعلام، والذي يُعطي مركزية للأشخاص في صياغة توجهات السياسة الخارجية، دون الأخذ بعين الاعتبار دور العوامل الموضوعية الأخرى وبما فيها مسألة أمننة القيم. تخلص الورقة إلى توافق التتبع التاريخي لسير الأحداث مع الكثير من افتراضات الواقعية البنوية، وكذلك إلى إمكانية مقارنة صراع القيم باعتباره يأخذ منحى أمنياً واضحاً لكلٍ من الغرب وروسيا، كما تتساءل الورقة في ختامها عن آفاق الدور الصيني في المستقبل واعتباراتها في هذا الخصوص.

الكلمات المفتاحية: الحرب الروسية-الأوكرانية؛ الواقعية البنوية؛ أمننة القيم.

Abstract:

This paper aims to discuss the causes of the Russo-Ukrainian war from a realistic perspective. It emphasizes the role of the security dilemma in paving the way for the conflict, spanning from the collapse of the Soviet Union to the onset of the invasion. The paper treats the Russian state as the primary actor in the decision-making process, in contrast to the common approach that focuses on individual decision-makers. This is particularly pertinent in light of the way media outlets present the issue, which often overlooks the significance of objective factors, including the securitization of values that contributed to the war's escalation. The paper concludes that historical analysis of events is aligned with several hypotheses of realism. It underscores that the clash of values between the West and Russia has taken on a clear security dimension. In conclusion, the paper suggests exploring the potential role of China and its stance regarding the conflict.

Keywords: Russian-Ukrainian War; structural realism;

* المؤلف المرسل: محمد براء علي ديب . mal142@dohainstitute.edu.qa

مقدمة:

عام 2014 نشر أستاذ العلاقات الدولية الأمريكي جون مرشايمر مقالاً بعنوان "لماذا أزمة أوكرانيا هي خطأ الغرب". كما يتضح من العنوان، كان المقال تعليقاً على الحدث السياسي الأبرز في ذلك العام، وهو ضم الاتحاد الروسي لشبه جزيرة القرم. اعتبر مرشايمر في مقاله أن الولايات المتحدة والأوروبيين يهددهم للمصالح القومية الروسية، هم من يتحملون مسؤولية خسارة القرم وزعزعة الاستقرار في إقليم الدونباس شرقي أوكرانيا. التهديد الذي تحدث عنه الكاتب، هو توسع حلف الناتو شرقاً وبدرجة أقل الاتحاد الأوروبي (Smith & Dawson, 2022, p.5)، وكون أوكرانيا، هي البلد الوحيد المتبقي – إذا استثنينا بيلاروسيا حليفة موسكو- الذي لم ينضم إلى حلف الناتو من دول شرق أوروبا، فإن موسكو كانت تعتبر مسألة انضمامه خطأً أحمر.

تحذيرات مرشايمر من تحويل أوكرانيا إلى جبهة غربية ضد روسيا، أُعيد تداولها على نطاق واسع، مع بدء الغزو الروسي رسمياً في الرابع والعشرين من شباط من سنة 2022. سوقت هذه الشهرة لنظرية الواقعية في العلاقات الدولية خارج الدوائر الأكاديمية، لكن وعلى الرغم من هذا الصدى القوي للتفسير الواقعي، فإن الخطاب السياسي والشعبي في الغرب تحديداً لا يمكن وصفه بالواقعي، فهذا الخطاب يربط بين طبيعة النظام السياسي السلطوي والمشخص في موسكو وقراره بالجوء إلى الحرب. بالنسبة لهؤلاء فأسباب الغزو متعددة. هي شيء من النوستالجيا التاريخية للقيصرية وحرب القيم مع الغرب، وربما عنجهية وسوء تقدير من الكرملين، أو على حد تعبير الكاتب الأمريكي توماس فريدمان هو شعور الرئيس الروسي المحض بأن فكرة دخول أوكرانيا في الاتحاد الأوروبي هي بمثابة الخيانة لروسيا (الجزيرة، 2022، 18:54-16:15).

تعكس مجمل الآراء السياسية في الغرب في أوساط النخبة والعامية، وجهة نظر المقاربة البنائية في العلاقات الدولية، والتي تؤكد دور الفاعلين (agency) في المجتمع الدولي، وتقوم على فكرة أن الدول غير متماثلة في فهمها لمصالحها، وبذلك ترد البنائية التفاعلات السياسية إلى ما تطلق عليه "البناء الاجتماعي" للعالم (دان وآخرون، 2016، ص. 435). سواءً كان بوتين هو السبب أو النخبة التي يمثلها، فإن هنالك طبقة سياسية تتحمل مسؤولية هذا التصعيد، أما المبررات الأمنية الموضوعية، فهي وإن كان لا يتم إنكارها أو نفياً صراحة، إلا أن تجاهل الخطاب المهيمن لها في الغرب، يوحي بأنها هامشية وأقل أهمية مما يحاول النظام السياسي في روسيا تصويره.

النظرية الثالثة، والتي لم يتم مناقشتها على غرار النظريات الأخرى هي الليبرالية. الكثير كان يحتاج لولا قيام الحرب، بأن الاعتماد المتبادل البالغ بين روسيا وأوروبا سيحول غالباً دون حدوث الحرب. فالاتحاد الأوروبي كان يسيطر على ما نسبته 52.3% من حجم التجارة الإجمالي في روسيا، بالإضافة إلى ذلك، كان يستورد ما يزيد عن 173 مليار يورو من روسيا في العام نفسه، ناهيك عن الاعتماد الطاقوي الكبير، والذي يصل إلى 39% من إجمالي مستوردات الغاز الطبيعي وفق إحصاءات عام 2014 (رسول، 2018، ص. 214).

نفهم من السرد الأنف، كيف انقسمت الساحة بين الأكاديميين الواقعيين، وبين النخبة السياسية الليبرالية في الغرب وجمهورها، والتي تتبنى وتسوق فهماً أقرب إلى النظرية البنائية في تفسير المتغيرات الجديدة، وهذا الموقف يمكن وضعه في إطار التعينة للحرب، أي أنه لا يعكس بالضرورة تقدير النخب الحقيقي لمجريات الأمور. وللتنويه فالتحقق من ذلك مسألة صعبة.

لذا، لتفكيك المشهد السياسي وجعله أقل تعقيداً بقليل، يمكن أن يقتصر السؤال البحثي على أسباب الحرب الروسية – الأوكرانية، لكن هذا ليس كافٍ، لأننا نستطيع على الأقل أن نتحدث عن ثلاثة أطراف مشتركة في الأعمال الحربية وهيئة البيئة المناسبة لها قبل نشوبها بسنوات كثيرة، وهذه الأطراف هي روسيا والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة. سيكون من المضي بحث المصالح القومية والبناء الاجتماعي لكل دولة منهم، وفهم تفاعل الموضوعي فيها مع ما هو اجتماعي، لمعرفة أي من النظريتين يفسر الحرب بشكل أفضل الواقعية أم البنائية.

لذا فقد ارتأينا، أن نصيغ السؤال البحثي كالتالي. ما هي أسباب الحرب الروسية على أوكرانيا، من وجهة نظر الواقعية البنوية. يعني أننا سنحلل الأسباب بناءً على افتراضات الواقعية البنوية من وجهة نظر روسيا، كونها البلد التي اتخذت قرار الحرب. أما اعتمادنا للواقعية فيعود إلى سببين، الأول يتعلق بالتحقق من وجود مبررات موضوعية تفرض على النخبة السياسية في موسكو قرار الحرب، والإجابة على هذا السؤال سيعطينا فكرة تسمح لنا بالمقارنة بين إلحاح الظروف والدور الحقيقي للفاعلية "agency" في اتخاذ قرار الحرب. السبب الآخر، يتعلق بادعاءات الواقعيين الجدد، ومن بينهم ستيفن والت، حول أفضلية الواقعية على النظريات الأخرى في تفسير عالم ما بعد 24 فبراير 2022 (Walt, 2022).

1- المعضلة الأمنية

تفترض الواقعية أننا نعيش في عالم أناركي، تغيب فيه مرجعية مركزية يمكن للدول أن تحتكم إليها في خلافاتها. هذه الحالة من الأناركية والاعتماد على الذات تولد لدينا ما يُطلق عليه بالمعضلة الأمنية، والتي تؤدي بدورها إلى التصعيد.

السبب في ذلك، هو أن الدول لأسباب تختلف فيها الواقعيون. ستسعى إلى زيادة قوتها في هذا العالم الذي يكرس الاعتماد على الذات وضعف الثقة. بالتالي، فإن سعي دولة ما في هذه البيئة لتعزيز قوتها وقدرتها على النجاة، سيكون بالضرورة على حساب الدول الأخرى (دان وآخرون، 2016، ص. 220). وفق هذا الفهم، فوراثة روسيا للاتحاد السوفييتي وعودتها كقوة تعديلية (revisionist state)

("Russian Perspective," 2015)، أعاد القارة الأوروبية من جديد إلى حالة الحرب الباردة. يحتاج فهم الدور الأوكراني في هذه المنافسة إلى استيعاب تطور المشهد السياسي روسياً وأوروبياً بعد عام 1991، وكذلك يتطلب فهم الجيوبوليتيك الروسي وأهمية أوكرانيا فيه.

أ- روسيا بعد عام 1991

انتهج حكام روسيا الجدد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة، سياسة الرئيس السابق ميخائيل غورباتشوف في التقرب من الولايات المتحدة والغرب عموماً. انطلقت هذه السياسات من رغبة القادة الروس في الحصول على القروض والمساعدات الاقتصادية لعرق البلاد من الفوضى التي كانت تمر فيها في التسعينات. هذه السياسة سرعان ما أصبحت أقل محاباة وأكثر استقلالية بعد عام 1993 (الأمارة، 2009، ص.ص. 97-100)، لكنها استمرت على نهجها الساعي للتقارب من الغرب.

عام 1997، وقع كل من الرئيس الروسي بورييس يلتسين ونظيره الأمريكي بيل كلينتون ميثاق باريس أو ما عُرف بـ (NATO-Russia Founding Act)، والذي تعهد فيه الناتو وروسيا أنهم لم يعودوا يعتبرون بعضهم

أعداء، وأكدوا فيه التزامهم بالتعاون في القضايا التي تخص أمن أوروبا، وكان من مخرجات القانون تأسيس مجلس دائم مشترك في بروكسل (U.S. Department of State Archive, n.d).

كان منطلق توقيع الاتفاقية براغماتياً، ينسجم مع الاستراتيجية التي اتبعها الاتحاد الروسي في عهد يلتسين. سمحت الاتفاقية عملياً بدخول دولٍ جديدة إلى حلف الناتو، وشملت الدفعة الأولى من الدول المنضمة كل من بولندا والتشيك وهنغاريا (الأمانة، 2009، ص. 305). مع تصاعد زخم توسع الحلف، كانت فرص الاندماج الروسي في الفضاء الغربي تتضاءل وتفقد مصداقيتها (Lynch, 2002, p.163).

في العام نفسه، دخلت روسيا في أزمة مالية طاحنة، ما أخر عملياً فرصتها في العودة كقوة عظمى، أما على الصعيد الأوكراني، فقد اعترفت روسيا باستقلالها بشكلٍ كامل، وبعدها بعامين حاولت أوكرانيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي لكنها فشلت، وقد كانت هنالك محاولة للانضمام إلى حلف الناتو أيضاً، عرقلتها الأغلبية الشيوعية في البرلمان (زار، 2019، ص.ص. 60 + 63). رغم الضعف الروسي آنذاك، إلا أن المكون الروسي في أوكرانيا كان قادراً على قتل فكرة الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي في المهد، لكن ذلك لم يحدث، لأن أوكرانيا عجزت عن تلبية الشروط الاقتصادية، وربما لأن روسيا لم تكن تمنع هذا التقرب من الغرب، وانحصرت مخاوفها آنذاك في القضايا الأمنية. لا تحتل هذه الحقيقة الإسقاط على الواقع المعاصر وفق الواقعية البنوية، فالواقعيون يرون أن السياسات الدنيا تصبح ذات أهمية عندما ترتبط بالأمن القومي لبلد ما، ومرشايهم كما أسلفنا كان يعتبر أن أزمة أوكرانيا يمكن ردها بدرجة ثانية إلى طموحها بالانضمام للاتحاد الأوروبي.

كان صعود فلاديمير بوتين إلى سدة الحكم عام 1999، علامة فارقة في تاريخ روسيا، فقد استطاعت من جديد تقديم نفسها على أنها قوة عظمى، وبذلك استطاعت أن تُعبر عن مخاوفها من توسع حلف الناتو في محيط روسيا، كما تمكنت البلاد في عهده من تحقيق الكثير من المكاسب الجيوسياسية، في كل من الشيشان وجورجيا وسورية وأوكرانيا ومولدوفا، وصولاً إلى الحرب الأخيرة التي لم تُحسم بعد، لكنها وضعت كل ما استطاع الزعيم الروسي بناءه على المحك.

استمر بوتين على نهج سلفه في التقرب من الغرب، وشهد عهده استقبال الرئيس الأمريكي في روسيا عام 2005، وتوقيع الكثير من اتفاقيات التعاون مع الولايات المتحدة (U.S. Department of State Archive, n.d)، وعلى المستوى الأوروبي، كانت لهجة الخطاب تجاه حلف الناتو وأوروبا أقل عدوانية. أعلن بوتين في تصريحات له أن بلاده جزء من الحضارة الأوروبية، ولم يستبعد في مناسبة أخرى انضمام روسيا إلى حلف الناتو، لكنه لم يتردد في إبداء مخاوفه من محاولة عزل بلاده عن عملية اتخاذ القرار (الأمانة، 2009، ص. 306).

كان للدور الذي لعبه بوتين بعد ضم القرم والتدخل في سورية على المستوى الخارجي، والتعامل مع الثورات الملونة في محيطه الإقليمي، دورٌ مهم في رد الاعتبار إلى بلاده، لكن هذا الدور، على عكس ما يُعتقد، لا يمثل قطيعةً مع سياسات يلتسين، فالاستراتيجية هي نفسها في ما يتعلق بالتقارب مع الغرب، وحماية روسيا من توسع حلف الناتو وتمتين العلاقات مع آسيا والدول المسلمة، ويمكن استشفاف ذلك من تصريح يلتسين عام 1997، قال فيه: "إنني بالضد من توسيع التحركات الغربية في المناطق القريبة من روسيا، وإن إدارتي

الحكومية وجدت أن مسألة تمتين العلاقات بين دول الكومنولث وتقوية الصلات مع الصين وإيران والدول المسلمة الأساسية من أساسيات أهداف الاستراتيجية الروسية" (الأمارة، 2009، ص. 102).

رغم استمرار نهج التقارب مع الغرب، إلا أن مستوى الثقة كان يتآكل تدريجياً، كنتيجة للثورات الملونة في كل من جورجيا وأوكرانيا، كما سادت حالة من الشك لدى الروس ضد الاستثمارات الغربية، وانطبق الأمر نفسه على موقف الأوروبيين من الاستثمارات الروسية التي بدأت تندفق إلى الخارج بعد 2006 - 2007. أما عن حلف الناتو، فقد وافق مجلس الشيوخ عام 2006، على قرار يقضي بضرورة ضم من كل من جورجيا وألبانيا وكرواتيا ومقدونيا ما جعل العلاقات مع الغرب أكثر توتراً (زار، 2019، ص.ص. 119-122).

في 2007 ألقى بوتين خطابه الشهير في ميونيخ، والذي أثار صدمة غربية بسبب لهجته الحادة ضد النظام العالمي أحادي القطبية وسلوكيات الولايات المتحدة خارج حدودها. أثار الخطاب آنذاك استياء الأمن العام لحلف الناتو الذي وصفه بالمحبط والمثير للتشاؤم، وقد تبع الخطاب بحسب ما نقلت وسائل الإعلام تمتدات في أروقة المؤتمر عن العودة إلى حقبة الحرب الباردة (Watson, 2007). بدأت الولايات المتحدة وأوروبا تفقد الأمل في قدرتها على إدماج روسيا في العالم الغربي، وهو الأمر الذي صعب مهمة ألمانيا في تعميق العلاقات الأوروبية الروسية (زار، 2019، ص. 124).

تبنت روسيا في السنوات اللاحقة استراتيجية "استرداد النفوذ والمكانة". خلال هذه الفترة، عمل بوتين على تطوير قدرات بلاده السيبرانية وتكنولوجياته العسكرية كما أنه عزز تحالفاته وشن عدداً من التدخلات العسكرية في كل من جورجيا 2008 وأوكرانيا 2014 وسورية 2015 (عبد الشافي، 2022)، وهو ما نجح في إعادة تصدير روسيا للعالم كقوة عظمى وفي أقل تقدير قوة إقليمية عظمى، وقد كان دافع هذه التدخلات هو التصعيد الناجم عن نية جورجيا وأوكرانيا الانضمام إلى حلف الناتو، والتي رحب بها حلف الناتو في 2008، لكنه لم يبدأ بإجراءات تفعيلها آنذاك ("حلف الناتو.."، 2022).

إن الخوض في تفاصيل العلاقات الروسية الغربية يتطلب وقتاً طويلاً، ولا يمكن إيجازه في بضع صفحات، لكننا إذا أردنا تقديم وصفٍ يلخص ما جرى بين روسيا والغرب خلال العقود الثلاثة الماضية، يمكن القول أن هذه العلاقة كانت مُعْضِلَةً أمنياً. لقد أراد الغرب أن تكون روسيا ديمقراطية ليبرالية، مُدمجة في الاقتصاد الغربي، لكنه أراد في الآن نفسه روسيا ضعيفة، لتخوفه من نواياها السياسية. من جهة أخرى، كانت روسيا صادقة في رغبتها بتكوين علاقات سياسية واقتصادية مع الدول الغربية، لكنها رفضت تهميش دورها السياسي، ورفضت سياسات الناتو التوسعية وما اعتبرته تهديداً أمنياً ووجودياً لها في أوكرانيا وجورجيا وغيرها.

ب- أوكرانيا والجيوبوليتيك الروسي

السؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا السرد، يتعلق بالخصوصية الأوكرانية في هذه المعضلة. لماذا تلج روسيا باستماتة على حياد أوكرانيا الأمني، رغم أن الخطر محقق من أكثر من جانب، والجواب هو الجيوبوليتيك، والذي يمكن تعريفه بـ "علم علاقة الأرض بالعمليات السياسية" (دوزي، 2017، ص. 43)، بمعنى آخر ينطوي هذا المفهوم على دراسة علاقة الجغرافيا بالسياسة، لفهم الفرص والمخاطر السياسية التي يعبر عنها الموقع الجغرافي والطبوغرافيا في مكان ما.

تعتمد سياسة الرئيس بوتين على التمسك بحياد المجال الحيوي لروسيا، وهذا رد فعل طبيعي في ضوء ما رأيناه من غياب الثقة والإحساس بالتهديد المتبادل بين الطرفين. بالنسبة لروسيا فالتعامل مع كل من جهة من حدودها يخضع لاعتبارات مختلفة، فهي تقيّم قدرتها على التدخل ومدى إلحاح الخطر الداهم بناءً على الموقع والطبيعة الجغرافية كما سلف.

بالنسبة للقوقاز مثلاً، فهو يتكون من سلسلتين جبليتين شمالية وعرة، نجحت روسيا في ضبطها عبر ألتي الحرب والسياسة، وجنوبية أقل صعوبة جغرافياً لكنها مستقلة، وتشمل هذه الدول المستقلة، جورجيا وأرمينيا وأذربيجان، وشاهد العالم كيف كانت ردة فعل روسيا مع جورجيا في 2008 عندما حاولت الانضمام إلى حلف الناتو (القرني، 2022). يمكن اعتبار سلسلة الجبال الشمالية منطقة عازلة تحمي روسيا من الأخطار الخارجية، لكن وجود الناتو على الحدود من هذه المنطقة في القوقاز الجنوبي قد يشعل لهيب الانفصالية في جزئه الشمالي.

بالنسبة لأوكرانيا فالوضع أشد خطورة، إذ تُعتبر أوكرانيا بالنسبة لروسيا منطقة عازلة تحميها من الوجود الغربي على حدودها، بالإضافة إلى ذلك فيقاء أوكرانيا صديقة أو محايدة ضمن المجال الحيوي لروسيا مطلب أساسي للكرملين، الذي لم يتقبل فكرة استقلالها قبل أن يكون هنالك حديث عن توسع الناتو أصلاً (Kuzio & D'anieri, 2018, p.65).

لقد كانت أوكرانيا تاريخياً خاضعة لروسة، فروسيا وعلى الرغم من مساحتها الكبيرة، لا تمتلك الكثير من المزايا النسبية لحماية نفسها من الغزاة. إذ تفرض عليها مساحتها الجغرافية الهائلة وطبوغرافيتها المسطحة والمليئة بالمستنقعات الحاجة إلى عمق استراتيجي يحميها، إضافة إلى حاجتها إلى الوصول إلى المياه الدافئة (عاطف، 2022). إن مبدأ حلف الناتو في الدفاع عن أراضي أعضائه سيجعل روسيا مقيدة تماماً أمام أي خطر يدهمها من الجهة الغربية (القرني، 2022)، إضافة إلى ذلك فإنه سيقوض أمن أسطولها في البحر الأسود.

لقد جادلت روسيا بمسألة استقلالية القرم، أكثر من استقلال أوكرانيا ككل، وفي عام 1992 مرر مؤتمر نواب الشعب فيها قراراً، بهاجم فيه الاتفاق الذي نقل السيادة القرمية إلى أوكرانيا سنة 1954 في العهد السوفييتي. وقد حدثت مناقشات بين الطرفين، أي روسيا وأوكرانيا، اختتمت بتوصلهما إلى اتفاق، حصلت روسيا بموجبه على 80% من الأسطول على البحر الأسود، إضافة إلى عقد إيجار ممتد حتى 2017 في القواعد العسكرية في سيفاستوبول، كما سمحت الاتفاقية لروسيا بنشر 25 ألف جندياً. وفي عام 2010 تم تمديد الاتفاقية حتى عام 2042 مقابل خصومات في أسعار الغاز (Kuzio & D'anieri, 2018, pp.71-72). إن شعور روسيا بتهديد وجودها العسكري في سيفاستوبول، كان أحد الأسباب الرئيسية، التي جعلها تسارع إلى ضم القرم بعد أحداث 2014 في أوكرانيا وقلب النظام الحاكم فيها، علاوة على ذلك فقد كان للبعد التاريخي دوراً إضافي مهم في شرعنة الضم.

إن روسيا من دون أوكرانيا تفقد هويتها كإمبراطورية أوراسية، كما يرى زينغيو برجينسكي (Rutland, 2015, p.129). وكما مر في السرد التاريخي عن الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة، فقد كانت الهوية الأوراسية في قلب السياسة الخارجية الروسية خاصة في عهد الرئيس بوتين. وفي ضوء هذه الحقائق، يمكن فهم دوافع السلوكيات الروسية في أوكرانيا، وفي ضوء الحقائق هذه نفسها، يمكن تفسير الاستماتة الغربية في تعزيز هيمنتها على أوكرانيا.

قد يبدو قرار الحرب غير حكيم، لكن في منطق الواقعية الهجومية، فإن طبيعة النظام الدولي ستدفع الدول العظمى إلى البحث عن أي ميزة نسبية على أعدائها، وهذا ما يجعل احتمال نشوب الحروب قائماً، وفي هذه الحروب فإن المهاجم هو الذي سيظفر بالفوز في غالب الأحيان. إضافة إلى ذلك، فإن الدول المهددة كأوكرانيا في بحثنا، ستسعى حسب الواقعيين إلى تمرير عبء الدفاع عن نفسها إلى دولٍ أخرى (دان وآخرون، 2016، ص.ص. 224-225)، وهو ما يمكن المجادلة بأنه صحيح في ضوء تطورات الأحداث على الجبهة.

والسؤال هنا، لماذا لم تكتفِ روسيا بسياساتها القديمة في احتواء أوكرانيا، واتخذت قرار الحرب؟ والجواب على هذا السؤال يتطلب قراءة لمسار تصاعد العداء بين البلدين في السنوات الأخيرة.

2- الطريق نحو الصدام:

أ- التصعيد وصولاً إلى الحرب

كانت أحداث 2004 في أوكرانيا، أو ما عُرف بالثورة البرتقالية، انطلاقة لتوتر العلاقات بين روسيا وأوكرانيا، وفي الواقع، يمكن تتبع التصعيد الحالي إلى تلك الفترة تحديداً. كانت الثورة عبارة عن تظاهرات قادتها أحزاب معارضة ضد نتائج الانتخابات الرئاسية التي انتهت بنجاح فيكتور يانكوفيتش المتهم بالقرب من موسكو. بعد سلسلة من التطورات، تم تنصيب فيكتور يوشينكو الموالي للغرب رئيساً على البلاد، والذي كان من نواياه السياسية المعلنة آنذاك، الانضمام إلى حلف الناتو، إضافة إلى التلميح بإنهاء عقد الأجار مع روسيا في سيفاستوبول جنوب القرم (حداد، 2020، ص.ص. 116+119).

يمكن ملاحظة حالتين متضادتين في أوكرانيا، الأولى هي الحالة الثقافية التقليدية التي لا تتقبل التغيير على النحو الليبرالي الغربي، والأخرى هي الحالة الليبرالية التي ترى في الغرب طريقاً للازدهار وتحسين الأوضاع الاقتصادية. القاسم المشترك بين الجميع، كان الرغبة في التقرب من الغرب كمخرج من الأوضاع الاقتصادية الصعبة، وهذه الرغبة تشاركها معهم أيضاً كل من روسيا وبيلاروسيا.

لذلك، وعلى الرغم مما اعتبرته موسكو تصعيداً غربياً، إلا أنها احتوت الموقف، وخلال شهرين حط بوتين في كييف في زيارة رسمية، وأبدى القطاع الخاص الروسي سخاءً في ضخ الاستثمارات في أوكرانيا، في حين فشلت محاولة يوشينكو تقليص اعتمادية بلاده على السوق الروسية، وكان للكرملين من جديد ميزة نسبية تفاوضية ضد أوكرانيا تساعد على حماية مصالحه (زار، 2019، ص.102).

نجح يانكوفيتش في العودة إلى الحياة السياسية بعد الثورة البرتقالية كرئيسٍ للوزراء وكزعيم للمعارضة، وفي عام 2010 أصبح يانكوفيتش من جديد، إن صح القول، رئيساً للبلاد، ثم وفي أواخر 2013 واجه حكمه تظاهرات احتجاجية اعتراضاً على عدم توقيعه لاتفاقية مع الاتحاد الأوروبي كانت ستساعد على تعزيز دمج أوكرانيا فيه (Opensocietyfoundations, 2019). فُهمت هذه الخطوة بالطبع على أنها محاباة لروسيا، فيانكوفيتش في أفضل الأحوال الخيار الروسي في أوكرانيا، في مقابل خيارات أخرى غير مرغوبة، وفي أفضل الأحوال فهو يأتمر بأوامر الكرملين.

وفقاً لألكسندر رار، فما قام به الرئيس الأوكراني آنذاك هو المفاضلة بين الاتحاد الأوروبي وروسيا، فمنذ 2012 كان المسؤولون الأوروبيون يترددون إلى كييف، عارضين على السلطات الدعم المالي اللازم لإعادة بناء الاقتصاد وإقامة شراكة أوكرانية أوروبية، في المقابل، قدم بوتين ليانكوفيتش فرصة الانضمام إلى الاتحاد

الأوراسي والحصول على القروض اللازمة وبشكلٍ مستعجل. اختار يانكوفيتش السوق الروسية على الأوروبية وهو ما أدى إلى إثارة غضب جزءٍ من النخب الأوكرانية (زار، 2019، ص.ص. 203+204).

تصاعدت الأحداث وتحولت إلى مواجهة مفتوحة، كرد فعل على الممارسات القمعية للسلطات، وهو ما نجم عنه إعلان عن انتخابات رئاسية وبرلمانية مبكرة، وإطلاق لبرنامج إصلاحات على النمط الأوروبي، في المقابل، عد الكرملين ما حصل انقلاباً على الحكم (Vox Ukraine, 2022)، وكان من نتيجة هذه الأحداث ضم القرم واندلاع صراع مسلح في إقليم الدونباس الناطق بالروسية شرقيّ أوكرانيا.

من المنظور الروسي، فقد كانت السلطات الجديدة معادية لروسيا، ولم يكن باعتقاد الكرملين أنه يمكن التعويل على قيام ثورة برتقالية في الشرق والجنوب، أي في المناطق التي توجد فيها الإثنية الروسية بكثافة (زار، 2019، ص. 211)، ويمكن أن نفهم من مسارعة روسيا لتأمين أسطولها في البحر الأسود، والمغامرة بعلاقاتها مع الغرب، أنها لم تعد تؤمن بقدرتها على الحوار مع سياسيين منفتحين على فكرة تأسيس علاقات مع موسكو، لأسباب مختلفة، منها تزايد مشاعر العداء ضد روسيا عموماً خلال هذه الأحداث، ولأسباب تتعلق بالخلفية المنطقية للمتظاهرين.

في 2015، وقع الجانبان الروسي والأوكراني، اتفاقيات مينسك 2، وذلك في إطار منظمة الأمن والتعاون في أوروبا، وبرعاية فرنسية ألمانية، ودعم من مجلس الأمن. نصت الاتفاقيات على الكثير من البنود، ومن ضمنها، منح الإقليم حق الإدارة الذاتية. كانت الاتفاقية مفتوحة على التأويل كما يرى الأوكرانيون، وقد حذر مسؤولون أن تطبيقها بشروط روسيا سيتسبب في فوضى داخلية، وبالرغم من نفور الأوكران من الاتفاقية، إلا أن كلا الطرفين، الروس والأوكران تبادلوا الاتهامات حول انتهاكها (Dixon & Stern, 2022). كانت روسيا تطمح أن تنجح الاتفاقية في منح الإقليم مزيداً من النفوذ داخل أوكرانيا، الأمر الذي كان سيساعدها على التأثير في النظام في كييف، دون اللجوء إلى الخيارات الأصعب، إلا أن تخوف القيادة الأوكرانية من ردة فعل الشارع، وإصرار روسيا على ضمان مصالحها في أوكرانيا، عني أن السيناريوهات المحتملة مفتوحة على التصعيد.

اشتد التصعيد باتجاه الخيار العسكري في السنة التي سبقت بدء الحرب، وكان كل من الناتو والمسؤولين الروس يتبادلون الاتهامات حول حشد كل من الطرفين لمزيدٍ من القوات العسكرية. وفي الربع الأخير من 2021، بدأ الحديث رسمياً عن "عدوانٍ روسي محتمل"، وهو ما أنكرته روسيا حتى اللحظة الأخيرة التي سبقت ما أطلقت عليه "العملية العسكرية الخاصة في الدونباس" في الرابع والعشرين من فبراير 2022 (سويدان، 2022).

ب- تقدير موقف

تصاعد الصدام العسكري في أوكرانيا لتضاهي شدته المعارك التي شهدتها أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. يتحدث يفغيني بريغوجين رئيس شركة فاغتر العسكرية في فيديو مسرّب كان يحاول فيه تجنيد سجناء روس، أن استهلاك الذخائر في الجبهة يتجاوز معدلاته في معركة ستالينغراد بمرتين ونصف (Murphy, 2022). تشير تقديرات أخرى إلى أن الجيش الروسي يطلق قرابة 67 ألف قذيفة وصاروخ بشكلٍ يوميّ (Parfonov, 2022). تُصعّب هذه الكثافة النارية إضافة إلى عوامل أخرى فرصة تحقيق أي اختراقٍ أوكرانيّ من

شأنه أن يكسر جمود الصراع، ويوقف لعبة عض الأصابع التي تمارسها كل من روسيا والغرب، ويشوهدا اللاتيين على الطرفين.

هنالك انقسام بين مؤيدي ومعارضتي تسليح أوكرانيا، بين من يرى أن التسليح سيرفع التكلفة البشرية على الطرفين فحسب، وبين من يؤمن بقدرة أوكرانيا على الانتصار أو تحسين شروطها التفاوضية. في المقابل، تأرجح السياسيون الغربيون بين التشاؤم المفرط حيال القدرات الأوكرانية إلى الحماس المبالغ بقدرةهم على الانتصار (Watling, 2023). تعكس الآلة الإعلامية هذا التحول عبر تقديم صور كارتونية لتوصيف أوضاع القوات الروسية على الجبهة سواء على مستوى التسليح أو الخسائر أو الكفاءة في قيادة العمليات. أما الجانب الروسي، فقد عانى بدوره من سوء التقدير وتكبّد خسائر جمة وفشائخ سياسية كتمرد بريغوجين الأخير، كل ذلك أثار تساؤلاتٍ بدوره عن مقاربة الكرملين لأهداف العملية العسكرية في أوكرانيا، وما إذا كانت القيادة الروسية تنوي أن تعيد حساباتها بهذا الخصوص.

تتطلب الإجابة على هذا السؤال مقارنة مآلات الحرب بالأسباب التي دفعت إليها، وهي مهمة صعبة جداً. من الصعب التنبؤ بمآلات الحروب بشكل عام وليس في هذه الحرب فقط. تتفاعل الحروب حتى في أبسط أشكالها مع عوامل عديدة (سايكلوجية، اجتماعية، مناخية...) تلعب دوراً تحديداً اتجاهات ورسم قرارات أصحاب القرار فيها (Cavanaugh, 2017). ثانياً، من الواضح أن السياسات الداخلية في كل من روسيا والغرب تضطلع بدورٍ مهم في تحديد قدرة الطرفين على حشد الموارد اللازمة لحسم الصراع، إذ ما يزال في جعبة الطرفين إمكانية لحشد المزيد من الموارد للحرب سواء على المستوى البشري أو على مستوى نوعية الأسلحة المستخدمة، لكنهما محدودان من حيث قدرتهما على ذلك. يواجه الرئيس الروسي خطر الانقلاب الداخلي والانشقاقات في صفوف النخبة أو تملل المواطنين الروس من الحرب، خاصة مع وجود الشواهد التاريخية على ذلك، أما الغرب، فتواجه فيه الأحزاب الحاكمة أزمة شعبية تفاقمها استغلال الحرب والأزمات الاقتصادية فيها خلال السنوات الأخيرة.

من المهم كذلك الأمر، الإشارة إلى الوضع الميداني المختلف في ساحة الحرب عن تصورات قادة الرأي والأكاديميين من غير المختصين. يبدو أن الآمال بحسم سريع للحرب بدأت تنخفض مع مرور الوقت وتلكؤ الهجوم الأوكراني المضاد الذي حشد له الغرب دعماً غير مسبوق، وهو ما تشي به المخاوف الغربية من تحول الحرب إلى صراعٍ مُجمد قد يمتد إلى سنوات أو حتى عقود (Toosi, 2023)، مقابل صعوبة استمرار الدعم الغربي لأوكرانيا على هذه الوتيرة لمدة طويلة.

وفقاً لتقرير للمعهد الملكي للخدمات المتحدة (RUSI) فإن الأداء الروسي ورغم المشكلات التي شابته، يختلف عن التصورات المطروحة في النقاشات عالمياً. إذ تمكن الجيش الروسي مع دخول حربه العام الثاني من التكيف وتجاوز الكثير من الإشكالات التكتيكية التي كانت تواجهه، كما أثبت العتاد المستخدم كفاءته في ساحة المعركة. علاوةً على ذلك، اتخذت القوات وضعية دفاعية، وعمقت خطوط الجبهة بحيث بات من شبه المستحيل تجاوزها من دون الحاجة إلى اقتلاعها عسكرياً. يسوق التقرير إلى جانب تطور أداء المشاة التكتيكي تقييماً لحالة آلة الحرب الروسية في الاختصاصات الأخرى كوحدة الهندسة التي اعتبرها واحدة من أكثر أدوات الجيش كفاءة، والدفاعات الجوية التي شهدت تطوراً كبيراً في الأداء، وقوة نظام الحرب الإلكترونية، الذي وُجه

جهده الأكبر باتجاه صد هجمات المسيرات الأوكرانية. الخسائر الأوكرانية في المسيرات تقارب الـ 10 آلاف طائرة شهرياً حسب التقرير، وهو رقم كبير (Watling, 2023).

تدعم استراتيجية الدفاع الروسية فرضية الصراع المجدد التي تتقنه روسيا وتُعَوِّل عليه. تلقى هذه الفرضية دعماً في الأوساط السياسية، ففي ماي 2022، أي بعد نحو ثلاثة أشهر من بدء الغزو الروسي، صرحت أفريل هينز مديرة مُجَمِّع الاستخبارات الأمريكية أن الرئيس الروسي يخطط لحرب طويلة الأمد وأن أهدافه تتجاوز إقليم الدونباس (RFE/RL, 2023a). تصريحات مشابهة أطلقها نائب رئيس مجلس الأمن القومي في روسيا دميتري ميدفيديف يُشير فيها إلى احتمالية أن يستمر الصراع في أوكرانيا لعقود قادمة (RFE/RL, 2023b). بالنسبة لبوتين السبعيني أو ميدفيديف الرئيس السابق والخليفة المحتمل، فيُحتمل أن تُشِير هذه التصريحات والسلوكيات إلى اقتناع النخبة بأهمية الأهداف الروسية في أوكرانيا. الصراع المُجمَّد ليس الخيار الوحيد بأي حال، إذ توقعت هينز أن سلوك بوتين قد يُصبح غير متوقع بالنظر إلى غياب التناسب بين قدراته العسكرية التقليدية وطموحاته السياسية (RFE/RL, 2023b). ما يزال السلوك الروسي هو نفسه بعد مرور سنة على هذه التصريحات، لكن بالنظر إلى الاتهامات الخطيرة المتبادلة بين الطرفين بالتحضير لكوارث بيئية كتفجير سد نوفاكاخوفكا والتحضير لتفجير قنبلة قذرة فمن المرجح أن توقعات مسؤولية الاستخبارات الأمريكية ما تزال قائمة الاحتمالية، أي أن الجانب الروسي قد يلجأ إلى تسريع خطته في أوكرانيا لاعتبارات قد لا نعرفها. وعليه طالما أن روسيا في منأى عن انهيار الوضع السياسي في الداخل، فإنه سلتجأ إلى الاستمرار في الحرب أو إلى حسمها بسرعة. الأمر نفسه ينطبق على الغرب، الطرف القادر على حشد جبهته الداخلية بدرجة أكبر ووقت أطول هو القادر على الفوز.

خاتمة

إن تطبيع العلاقات بين روسيا وأوروبا بعد الحرب الباردة كان مطلباً للطرفين، واتُخذت في سبيله الكثير من الخطوات الجادة، منها القطيعة مع الأيديولوجيا الشيوعية في روسيا، والجهود التي بذلتها دولٌ أوروبية وفي مقدمتها ألمانيا في سعيها لدمج روسيا في الاقتصاد العالمي. المشكلة التي واجهت الطرفين، كما يتضح من العرض السابق، هو أن روسيا ورغم رغبتها في تطوير علاقتها مع الغرب، كانت متشددة في مسألة أمن مجالها الحيوي، في حين كانت أوروبا، تختبر صدق النوايا هذا، عبر الدفع بالناتو والمؤسسات الأوروبية شرقاً، أملاً منها بليلة روسيا، وبالتالي ضمان انسجام مصالحها مع المصالح الأوروبية.

صراع القيم هذا، كان جلياً في الحرب في أوكرانيا، حيث نجد من جهة أولى، الإثنيات الناطقة بالروسية والتقليدية، وفي المقابل، الطبقة الوسطى في كييف والمجتمع المدني بالإضافة إلى سكان غرب أوكرانيا المتأثرين ببولندا وأوروبا، وكذلك القوميين الأوكران المتشددين بخصوص أوكرانيا البلاد.

السؤال هو، هل تنسجم هذه المعطيات وطريقة تطورها، مع افتراضات الواقعية البنوية؟ والإجابة هي نعم. يستطيع مفهوم المعضلة الأمنية كما سلف شرحه، تلخيص هذا الارتباك ببلاغة عالية. إن غياب السلطة في المجتمع الدولي، يجعل تصعيداً من هذا النوع بين القوى العظمى محتملاً، وإن كانت نوايا ومصالح الأطراف هي السلام لا الحرب. أما صراع القيم الذي تحدثنا عنه، فلا يتناقض مع الواقعية البنوية، إذ إن السياسات الدنيا الاجتماعية والاقتصادية، يمكن أن تكون امتداداً للسياسات العليا، ما يجعلها في قلب الصراع. إن الواقعية تنجح في تفسير التصعيد، والواقعية الهجومية بالتحديد تصف تطورات الأحداث بطريقة

أدق، إذ تقول إن الدول العظمى قد تلجأ لقرارات استراتيجية غير حكيمة مثل اتخاذها لقرار الحرب. لكن وبكل الأحوال، فإن بنية المجتمع الدولي هي التي تدفعها إلى اتخاذ هذه القرارات التي تبدو للمراقب لا تصب بمصلحتها أو جنونية تماماً. بالتالي، يمكن الخروج بسؤال بحثي آخر، يتعلق باحتمالات التصعيد المحتملة من جانب الصين، بوصفها القوة التعديلية الأخرى "revisionist state" في الساحة، ما احتمالات تصعيد الصين واتخاذها لقرارات غير إستراتيجية، في حال شعرت بأن حليفها تقهقرت في هذا الصراع؟ بكل الأحوال من الصعب التنبؤ بأي شيء عند هذه المرحلة، وتبقى الاحتمالات مفتوحة وفقاً لتطورات الحرب.

لائحة المراجع

المراجع العربية

- الأمارة، لى مضر. (2009). الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة وانعكاساتها على المنطقة العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حداد، أسماء. (2020). النموذج الروسي للحرب الهجينة في أوكرانيا: الخيارات والرهانات. عمان: مركز الكتاب الأكاديمي.
- دان، تيم؛ كوري، ميليا؛ سميث، ستيف. (2016). نظريات العلاقات الدولية: التخصص والتنوع. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- زار، ألكسندر. (2019). روسيا والغرب: لمن الغلبة (ترجمة: محمد نصر الدين الجبالي) المركز القومي للترجمة.
- رسول، محمود. (2018). أمن الطاقة في العلاقات الروسية-الأوروبية. مركز الكتاب الأكاديمي.
- عبد الشافي، عصام. (2022). الحرب الروسية-الأوكرانية ومستقبل النظام الدولي. مركز الجزيرة للدراسات.
- دوزي، وليد. (2017). الصراع العرقي والديني في البلقان. عمان: دار زهران للنشر والتوزيع.

مواقع إلكترونية:

- الجزيرة. (2022، 7 مايو). توماس فريدمان للجزيرة: لا أستبعد لجوء روسيا إلى استخدام الأسلحة النووية [ملف الفيديو]. يوتيوب. <https://www.youtube.com/watch?v=lxgfBuiYl1s>
- القرني، أحمد. (2022، 27 أبريل). أوكرانيا في الجيوبوليتيك الروسي. المعهد الدولي للدراسات الإيرانية. مسترجع من <https://2u.pw/YYKHd>
- "حلف الناتو.. لماذا تم تأسيسه وكيف توسع في شرق أوروبا؟" (2022، 13 فبراير). دويتشه فيله. مسترجع من <https://2u.pw/vnDB4>
- سويدان، محمد. (2022، 26 فبراير). ما تخفيه البروباغندا الأميركية في الأزمة في أوكرانيا. مسترجع من <https://2u.pw/wg5DQ>

المراجع الأجنبية

- Cavanaugh, M. L. (2017, January 6). Uncontrollable War: Why We Can't Accurately Predict or Adequately Prepare for Violent Conflict. Modern War Institute. <https://mwi.westpoint.edu/uncontrollable-war-cant-accurately-predict-adequately-prepare-violent-conflict/>
- D'anieri, P., & Kuzio, T. (2018). The Sources of Russia's Great Power Politics. E-International Relations. England.
- Dixon, R., & Stern, D. L. (2022, February 14). Can Dusting off an Old Peace Deal Stop Russia from Invading Ukraine? Here's What to Know. The Washington Post. <https://www.washingtonpost.com/world/2022/02/14/ukraine-russia-minsk-putin/>
- Lynch, A. (2002). The Evolution of Russian Foreign Policy in the 1990s. The Journal of Communist Studies and Transition Politics, 18(1), 161–182.

- Murphy, M. (2022, September 15). Wagner Group: Head of Russian Mercenary Group Filmed Recruiting in Prison. BBC News. <https://www.bbc.com/news/world-europe-62911618>
- Opensocietyfoundations. (2019). Understanding Ukraine's Euromaidan Protests. <https://www.opensocietyfoundations.org/explainers/understanding-ukraines-euromaidan-protests>
- Parfonov, H. (2022, August 18). Ukrainian Strikes Cause Moscow to Re-Think Munitions Supply and Logistics (Part Two). Eurasia Daily Monitor, 19(127). <https://jamestown.org/program/ukrainian-strikes-cause-moscow-to-re-think-munitions-supply-and-logistics-part-two/>
- Reynolds, N., & Watling, J. (2023). Meatgrinder: Russian Tactics in the Second Year of Its Invasion of Ukraine. Royal United Services Institute for Defence and Security Studies. <https://rusi.org/explore-our-research/publications/special-resources/meatgrinder-russian-tactics-second-year-its-invasion-ukraine>
- RFE/RL. (2023, May 10). Putin Prepared For Prolonged Conflict In Ukraine, U.S. Intelligence Director Says. Radio Free Europe/Radio Liberty. <https://www.rferl.org/a/haines-putin-ukraine-war-long-conflict-assessment/31843184.html>
- RFE/RL. (2023, May 26). Russia's Medvedev: Ukraine Conflict May Last for Decades, No Talks With Zelenskiy. Radio Free Europe/Radio Liberty. <https://www.rferl.org/a/russia-medvedev-ukraine-conflict-decades-no-talks-zelenskiy/31843184.html>
- Russian Perspective. (2015, November 20). Putin's famous Munich Speech 2007 [Video]. YouTube. <https://www.youtube.com/watch?v=hQ58Yv6kP44>
- Rutland, P. (2015). An Unnecessary War: The Geopolitical Roots of The Ukraine Crisis. In Ukraine and Russia: People, Politics, Propaganda and Perspectives (pp. 129–140).
- Smith, N., & Dawson, G. (2022). Mearsheimer, Realism, and the Ukraine War. Analyse & Kritik.
- Toosi, N. (2023, May 18). Ukraine could join ranks of 'frozen' conflicts, U.S. officials say. Politico. <https://www.politico.com/news/2023/05/18/ukraine-russia-south-korea-00097563>
- U.S. Department of State Archive. (n.d.). United States Relations with Russia: After the Cold War. <https://2001-2009.state.gov/r/pa/ho/pubs/fs/85962.htm>
- Vox Ukraine. (2022, April 6). The Maidan in 2014 Is a Coup d'etat: A Review of Italian and German pro-Russian Media. <https://voxukraine.org/en/the-maidan-in-2014-is-a-coup-d-etat-a-review-of-italian-and-german-pro-russian-media/>
- Walt, S. (2022, April 13). The Ukraine War Doesn't Change Everything. Belfercenter. <https://www.belfercenter.org/publication/ukraine-war-doesnt-change-everything>
- Watson, R. (2007, February 10). Putin's Speech: Back to Cold War? BBC News. <http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/6350847.stm>
- Watling, J. (2023, February 27). The War Will Grind On: Reflecting on A Year of War in Ukraine. Royal United Services Institute. <https://www.rusi.org/explore-our-research/publications/external-publications/war-will-grind-reflecting-year-war-ukraine>
- Watson, Rob. "Putin's Speech: Back to Cold War?" BBC News, February 10, 2007. <http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/6350847.stm>